حياة المازني

المازني والصحافة

« لست صحفياً بالمعنى الصحيح ، وإنما أنا رجل كاتب »
المازني

للأستاذ محمد محمود حمدان

— ٥ —

صلة المازني بالصحافة صلة قديمة ترجع إلى ما قبل اشتغاله بها . فقد كان منذ سنة ١٩٠٧ يكتب في الصحف التي تخصص جزءاً من صفحاتها للموضوعات الأدبية كالجريدة والمؤيد والدستور . وهذه الأخيرة هي الصحيفة التي كان يصدرها في ذلك الحين الأستاذ محمد فريد وجدي ويشترك في تحريرها الأستاذ العقاد . وعلى صفحات الدستور وعن طريقه تعارف المازني والعقاد فتلازما من بعد واقترن اسماهما وتوطدت بينهما صداقة سوف يعتز بها التاريخ الأدبي ما ذكرت صداقات الأدباء

وفي سنة ١٩١١ أصدر الأستاذ الشيخ عبد الرحمن البرقوقي مجلة « البيان » فتعهدها نخبة من الأدباء الناشئين في ذلك الجيل أمثال الساعي والمازني والعقاد وشكري . ونشر بها المازني فصولا في الأدب والنقد ضمنها بعد ذلك أول كتاب صدر له وهو كتاب « الشعر ، غاياته ووسائطه » (١٩١٥) ، كما بدأ بها ترجمة كتاب التربية الطبيعية أو إميل للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو . وتوقفت البيان عن الصدور فتحولت تلك المدرسة الأدبية إلى صحيفة « السفور » التي كان يصدرها الأستاذ عبد الحميد حمدي على عهد الحرب الكبرى .

أما بدء اشتغال المازني بالصحافة بعد اعتزاله التدريس فقد كان حين دعاه الأستاذ عبد القادر حمزة ، عقب الثورة ، لمعاونته في تحرير صحيفة « الأهالي » وكانت تصدر بالإسكندرية ، وكان المازني مريضاً متلف الأعصاب من أثر التجربة النفسية التي امتحن بها في ذلك الصدر من حياته والتي أشرنا إليها في الفصل السابق ، فاشترط أن تكون مشاركته إلى حين

وفي تلك المرحلة الباكرة من مراحل الحياة السياسية في مصر ، كانت الصحف أكثر اهتماماً وعناية بالآراء والأفكار منها بالحوادث والأخبار ، فكان طابعها الأغلب وأكبر اعتمادها على المقالة . وكان ذلك أقرب إلى طبيعة الكاتب في المازني ، فلا جرم استطاع أن يلبي حاجتها ويساير اتجاهها ، متمشياً مع طبيعته محتفظاً بخصائصه ، غير متكلف ما يعدل به عن مذهب الحرية والاختيار

وكان المازني ممن شاركوا في هذا المجال وبرزوا فيه . ولفت ذلك نظر الأستاذ أمين الرافعي إليه ، فدعاه إلى مشاركته في تحرير صحيفة « الأخبار » وهي إذ ذاك من كبريات الصحف الوطنية وأعلاها صوتاً ، فعمل بها المازني سنوات ، وفيها توطدت شهرته الصحفية ، حتى ليمكن أن تعد تلك الفترة بداية التاريخ الصحفي في حياة المازني الكاتب الأديب . وفي الأخبار كان المازني ينشر إلى جانب مقالاته السياسية اليومية فصولا أسبوعية في الأدب والنقد ، ومنها الفصول التي جمعها بعد ذلك في كتابيه حصاد الهشيم وقبض الريح . وظلت هذه عادته في أغلب الصحف التي عمل بها

وعمل المازني بعد ذلك في صحف شتى لا يعنينا هنا أن نحصيها في جملتها . واضطلع فترة برياسة التحرير في صحيفة « السياسة » تعرض أثناءها لما يتعرض له رؤساء التحرير المسئولون ، فقد قدم إلى المحكمة واستدعي للتحقيق معه غير مرة . وفي فترة تعطيل السياسة على عهد الوزارة الصدقية الأولى أصدر المازني بالاشتراك مع الأستاذين الدكتور محمد حسين هيكل ومحمد عبد الله عنان كتاب « السياسة المصرية والانقلاب الدستوري » في نقد سياسة ذلك العهد

وقد حفلت حيـاة المازنى الصحفية فى شتى مراحلها بالتجارب والأحداث ، وكانت بعض هذه التجارب خليقة أن تعـدل به عن وجهته وتحمله على الفـرار بنفسه من الصحافة ، ولـكنه ظل صامداً إلى النهاية كما تعود أن يصمد فى كل ميدان ، وتغلب على متاعب المهنة كما تغلب على متاعب الحيـاة . ويروى المازنى أنه كاد يتعرض يوماً للنفى بسبب مقال . وخلاصة الحادث أنه فى بعض الأعوام كتب سلسلة مقـالات عنيفة فى الأخبار ، يهاجم فيهـا الوزارة القائمة آنذاك . وكان من المعارضين لها . وحدث أن وقعت جريمة وحشية اعتبر الـكتاب المعارضون مسئولين أدبيا عنها . وعلم بذلك الأستاذ أمين الرافعى فدعا إليه المازنى وأخبره أن الوزارة قررت نفيه ، وأن الأوفق أن يسافر إلى سويسرا حيث يراسل الأخبار من هناك . ويقول المازنى : «أعددت حقائبى وأخبرت أمى وطمأنتها ، وبت مؤرقاً طول الليل أنتظر أمر النفى وتنفيـذه ، وإذا بالوزارة تستقيل فى فحمة الليل .. فنجونا ولله نكد ! »

* * *

ومن طرائف المازنى فى الصحافة أنه اتفق يوما مع صديق له من كبار رجال وزارة المعارف على أن يبعث إليه بمقالات فى نقـد أعمال هذه الوزارة ، وكان المازنى يعارض الحكم القائم ، فكان هذا الصديق يرسل المقال إلى المازنى فيحمله إلى بيته وينسخه بيده ويحرق الأصل إتقاء لمواقب التفتيش . ويقول المازنى وهو يروى هذه الحادثة « قامت القيامة فى وزارة المعارف ، وانطلق بعض رجالها يسألون ويستخبرون ليهتدوا إلى كاتب هذه المقالات المزعجة ، واستدرج بعضهم بعض المهال البسطاء ، فملوا أن المقـالات بخطى ، فلم يستغرب أحد أن أكون أنا الـكاتب . وكنت فى ذلك الحين أسكن حى الإمام الشافعى ، ولى فيه أقارب وأصهار كثيرون ، ومن بينهم شيخ الإمامين الأسبق المرحوم السيد أحمد محسن ، فاتفق ذات ليلة أن كنت عائدا إلى بيتى ، فإذا كل من يلقانى فى طريق يقول إن الشيخ يسأل عنك . فذهبت إلى بيته فلم أجده . وفى الصباح جاءنى الخادم يقول إن الشيخ ينتظرنى لأنزل معه فى مركبته ، فمرجت عليه وركبنا معا . وسـألته عن الخبر ، وكنا فى رمضان ، فقال : ياشـيخ ، حرام عليك ! الرجل زارنى أمس بعد الإفطار بربع ساعة ، فهو إما غـير صائم ، أو هو لم يهنأ بطعام ، وكل هذا من تحت رأسك ! فاستزدته من البيان فقال : إن الوزير يعرف أنك كاتب هذه المقـالات التى أقضت مضجعه ، وهو مستعد أن يستصدر قرارا فى الحال من مجلس الوزراء بإعادتك إلى الخدمة ، وفى مثل الدرجة التى فيها أحسن زملائك حالا ، وأن يحسب لك فى معاشك المدة التى قضيتها خارج الحـكومة . فضحكت وقلت: هبنى كاتب هذه المقالات ، فهل تكون الرشوة على هذه الصورة علنا ، وعلى مرأى ومسمع من الخلق جميعا ؟ فقال لاتكن مغفلا ! ما خير هذه الصحافة ؟ إن أسرتك كبيرة ونفقاتك كثيرة ولا اطمئنان على الرزق فى الصحافة ، فعد إلى عملك واستقر واحمد ربنا على الفرصة التى أتيحت لك . فقلت له : يا سـيدى الشيخ ، إن لـكل ذمة ثمنها ، ولا أحسبنى فوق الرشوة إذا بلغت حد الإغراء ، ولـكنه ما من ذمة خربة تقبل الرشوة علنا ونهارا وجهارا على هذا النحو . ماذا يقول الناس ؟ فى المساء يقرأون الأخبار فإذا فيهـا مقال فى نقـد الوزارة ، ثم يصبحون فإذا أنا موظف كبير فى وزارة المعارف ! »

* * *

ثم كان المازنى فى سنواته الأخيرة يعمل فى أكثر من صحيفـة ، ويكتب إلى جانب ذلك للصحف التى تفترح عليه موضوعات الـكتابة ولا تقيده بالناحية السياسية وحدها . وقد عد البعض من مآخذه أنه جمع بين صحف تتعارض فى السياسة والمبـدأ . أما هو فـا كانت رسالة الصحافة لتختلف عنده بين صحيفة وأخرى ، وما كانت تعنيـه

الحزبية على الإطلاق . وقد ظل طيلة اشتغاله بالصحافة مستقلا برأيه ، بل كان المازنى ربما كتب معارضا لرأى الحزب الذى يعمل فى صحيفته . فهو يؤيد ما يعتقده صوابا ويعارض ما يراه مخالفا للصواب . وكان حكمه على الأعمال لا على الأشخاص . فلم يمنعه تقديره لزعيم كسعد زغلول من معارضة سياسته ، ولم تحل معارضته العنيفة لسياسة سعد دون الاعتراف بكفايته وعبقريته . وفى حياة المازنى الصحفية ، وهى طويلة ، لم تجتذبه المساجلات والمعارك التى كثيرا ما تثور بين الصحف ، وقلما عنى بالخوض فيها . ولا مراء فى أن المازنى كان ، فى بعض العهود ، معارضا شديد المعارضة ، ولكنه لم يكن يخرج فى معارضته عن حد النقد النزيه والإرشاد والتوجيه

وعلى الرغم من الصلة القوية بين الصحافة والسياسة ، كانت الكتابة الصحفية وحدها حد المازنى من المعترك السياسى ، فقد نأى بنفسه عنه ، وكان مستعدا حتى لترك الصحافة لو أنها كلفته النزول إليه

ولقد فوتح فى أمر ترشيحه للنيابة فرفض الفكرة ولم يأسف على رفضها ، بل لقد رفض أن يتقدم لانتخابات الرياسة فى نقابة الصحفيين برغم إلحاح زملائه عليه . وقد اختير فى بعض السنين وكيلا لها وما أحسبه رضى بهذا الاختيار إلا لأنه قدر أنه مستطيع أن يخدم به الصحافة ، ولأن المنصب فى ذاته لا خطر له فى غير دائرته المحدودة وهى دائرة النقابة

وقد طال اشتغال المازنى بالصحافة ولم يكن صحفيا مع ذلك ، أو هو كان صحفيا فى حدود خاصة ونطاق لا يتعداه . فقد كانت وظيفته الأصيلة وهوى نفسه الكتابة لا الصحافة . وهو يقدم لنا فى أحد فصوله كتابه الساخر الممتع « صندوق الدنيا » صورة وصفية لصحفى ، يقول فى ختامها على لسان رئيس التحرير : « يا صاحبى إنك كاتب لبق يسمك ما لا يسم فرقة بأسرها من الكتاب حين تجلس إلى مكتبك ، ولكنك حين تلقى الناس لا تعود صالحا لشئ أو قادرا على شئ . فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلقك خلقا جديدا ! » وأكبر الظن أن المازنى كان يصدر فى بعض جوانب هذه الصورة عن شعوره الشخصى ، وأنه كان يصور نفسه هو

ونورد هنا حادثة لعلها فريدة فى حياة المازنى الصحفى نرويها لدلالتها على ما ذكرناه ، ولما فيها من فكاهة وطرافة فى آن .

ذلك أنه عقب عودة سعد من منفاه ، وفى صباح اليوم التالى لوصوله إلى القاهرة ، كان المازنى واقفا فى محطة الترام فى الإمام الشافعى حيث كان يسكن ، فمر به شيخ اللحادين وهم الذين يتولون حفر المقابر وحراستها والقيام عليها ، فرآه وأفضى إليه بأن سعداً آت لزيارة مقابر الشهداء . فبعث المازنى من جاءه بقلم وورق ، ووقف ينتظر ، وبعد قليل أقبل سعد فى سيارته ومعه بعض صحبه فى سيارة أخرى فأشار إليها المازنى فحملته معهم . وزار سعد مقابر الشهداء وألقى كلمة وجيزة دونها المازنى ، ثم قصد إلى قبر شهيد قبطى وألقى كلمة أخرى دونها المازنى أيضا . ولفت بعض الحاضرين نظر سعد إلى المازنى فحياه

ورجع المازنى إلى الأخبار ، واعتذر للأستاذ أمين الرافعى من تأخره ، فضحك ، وقال إن سعدا أخبره بالتلفون أن المازنى أبرع صحفى فى العالم ، لأنه عرف أن سعدا سيزور مقابر الشهداء ، مع أن الذين رافقوه ما كانوا يعرفون هذا ! .. قال الأستاذ أمين الرافعى « وطبعا وافقته ولم أكشف له عن سر هذه البراعة ! » أى أنه لم يقل له إن المازنى يسكن بين المقابر !

* * *

وبعد ، فقد غبرت على المازنى فى الصحافة سنوات طويلات المدد ، كانت كلها سنوات كفاح وجلاد بعيا به جبابرة الرجال . وأدركه منها بلاء لا يقاس إلى جانبه بلاء